رواية

ممرّ الأسئلة

الكاتب: عمر إبراهيم عبد الرحمن

إشراف مجلة نور الثقافية

المقدمة:

في لحظةٍ ما، يتوقف الزمن عن الجريان... لا لأنّ الساعات تعطلت، بل لأنك توقفت عن الإحساس بالحياة.

كل ما حولك يتحرك، لكن داخلك ساكن، كمدينة ضربتها الحرب ثم نسيها التاريخ.

نحن لا نولد من بطون أمهاتنا فقط... بل نولد من الدخان، من فقد الأحبة، من ليالٍ قضيناها نحرس بقايا أرواحنا من الانطفاء.

الغربة ليست أن ترحل من وطنك، بل أن تستيقظ كل صباح ولا تجد شيئًا يستحق البقاء.

هذه ليست قصة بطل...

بل حكاية من ظلّوا واقفين وسط الحرائق، لا ينتظرون نهاية سعيدة، بل لحظة تنقس دون ألم.

عن الخرطوم حين تشيخ، وعن القلوب حين تتصلب، وعن الحب الذي يشق طريقه وسط الركام.

قد لا تجد خلاصًا في هذه الصفحات،

لكنك ربما... تجد نفسك.

***

في صباحٍ شتويّ بارد، وبينما كنتُ أتجول في أزقة الحيّ القديم في الخرطوم، استوقفتني رائحة القهوة المنبعثة من مقهى صغير. دخلتُ وجلستُ في الزاوية المعتادة، أراقبُ المارة من خلف الزجاج المُغبّش.

كان هناك رجلٌ مسنٌ يجلسُ على الطاولة المقابلة، يحدّق في فنجانه الفارغ. تلاقت أعيننا، فابتسمتُ له، فردّ التحية بإيماءةٍ خفيفة.

تجرأتُ وسألته: "هل تنتظر أحدًا؟"

أجاب بصوتٍ متهدّج: "أنتظرُ نفسي."

صمتُ قليلاً، ثم قلتُ: "وكيف تعرفُ أنها ستأتي؟"

أجاب: "لأنني وعدتُها أن أعود."

تملكني الفضول، فسألته عن قصته. بدأ يسردُ حكايةَ شابٍّ غادرَ وطنه بحثًا عن المجد، وتركَ خلفه قلبًا ينتظر. مرّت السنوات، وتغيّر كل شيء، إلا ذلك الوعد.

شعرتُ أنني أنظرُ إلى مرآةٍ تعكسُ مستقبلي. تذكرتُ وعودًا قطعتُها، وأحلامًا أجلتُها.

نهضتُ من مكاني، واتجهتُ نحو الباب. وقبل أن أغادر، التفتُ إليه وقلتُ: "شكرًا على التذكرة."

ابتسم وقال: "لا تنسَ أن تعود."

-

تابع

خطوتُ خارج المقهى، والريح تصفع وجهي كما لو كانت توبّخني على سنواتٍ أهملتُ فيها الحقيقة. بين الأزقة المتربة، سمعتُ صوت الأذان يتسلل من مسجدٍ بعيد، كأنّه نداءٌ من زمنٍ سحيق يذكرني بمن أكون.

أخرجتُ هاتفي القديم، شاشةٌ متشققة ورقمٌ محفوظ باسم "صباح" يظهر في الأعلى. لم أتجرأ على فتح المحادثة منذ سنوات. هي كانت تعرف دائمًا كيف تعيد ترتيب فوضاي، وكانت تسألني عن الوطن أكثر مما تسألني عن نفسي.

عدتُ للبيت، دار العائلة في "الكلاكلة" كما تركته: الأبواب تصدر صريرها المعتاد، وسقف الطين يتنفس مع كل هبّة ريح. وجدت إبراهيم في الساحة الخلفية يُصلح شيئًا لا أفهمه، كعادته. رفع رأسه، وقال دون أن ينظر إليّ مباشرة:

"رجعت؟"

أجبته بهزّة رأس، وجلست بجواره. لم نحتج للكلمات، فالصمت بين الإخوة أحيانًا أكثر وضوحًا من أيّ حوار.

"عبق جات قبلك بي يومين، ساقت ليها شجرة الليمون... ولسّا بتسأل عنك."

لم أعلّق. فقط تأملتُ السماء، حيث الرعد يتدحرج خلف الغيم، وكأنّه قلبٌ غاضبٌ لا يُفصح، لكنه يُهدد بالانفجار.

***

دخلتُ الغرفة التي كانت تسمّى "غرفة البنات" في دارنا القديمة. كانت الشمس تتسلل من شقوق الشباك، مخترقة الغبار الساكن على الأثاث. هنا كانت صباح تكتب أحلامها على جدران الصمت، وهنا كانت عبق تقف طويلاً أمام المرآة لا لترى نفسها، بل لتقيس اتساع الغياب في عينيها.

سمعتُ خطواتها قبل أن أراها. عبق لم تكن تتغير، تسير كما لو أنها تحمل شيئاً هشّاً داخلها وتخشى أن يسقط.

قالت دون أن تنظر إليّ:

"رجعت وما قلت."

ثم أضافت بابتسامة لا تكمل الطريق إلى عينيها:

"لكن دارنا عارفة خُطا أولادها."

جلست على الكرسي الخشبي المقابل، نفس الكرسي الذي كان يهتز حين كانت تقص علينا القصص في ليالي القطوعات.

عبق كانت الأخت التي لم تولد كبيرة، بل صارت كذلك حين اضطرّت. كان صمتها دوماً أكثر بلاغة من كلامها.

قالت:

"صباح كتبت لي قبل أن تختفي... قالت إنك بتسمع أشياء ما بيقدروا يسمعوها، وإنك شُفت حاجة في دارفور غيرتك."

التفتُ نحوها، أردت أن أتكلم، أن أقول: "أنا ما شفت، أنا ابتلعت شيء ما بطلع."

لكنّي صمتُ.

عبق تابعت:

"قالت لي يومًا إنك بقيت غريب، كأنك ما منّا. لكن أنا بفتكر... انت الوحيد البحس بالوجع دا كله."

تكسّرت الجملة في صدري. هناك شيء في كلماتها كان يُشبهني، ويُدينني في ذات الوقت.

ثم ناولتني ورقة مطوية:

"لقيتها في كتب صباح، ما قدرت أفهمها."

فتحت الورقة، رموز غير مفهومة، شبيهة بتلك التي رأيتها في الميدان الأخير قبل الانسحاب. في طرف الورقة، جملة باهتة كُتبت بحبر شبه جاف:

"إن لم تعد أنت، لن أعود أنا."

رفعتُ رأسي نحو عبق، وقلت بهدوء:

"متى اختفت صباح؟"

همست:

"قبل أسبوعين... بعد أول برق، بعد أول نداء."

استيقظت قبل أن أسألها ما هو ذلك الصوت.

كانت عقارب الساعة تشير إلى *1:00 صباحًا*.

الهواء ثقيل، والبيت صامت، كأن شيئًا ينتظر أن يُقال أو أن يُكمل رحلته.

وفي الخارج... بدأ الرعد يتشكل.

-

***

كان إبراهيم يجلس تحت شجرة النيم أمام البيت، كعادته في مثل هذا الوقت. الكرسي المهتز، الراديو الصغير،

كوب الشاي المُرّ، وسكونٌ يعرفه الزمان قبل المكان.

لم يكن والدي يتكلم كثيرًا، لكنه يملك طريقة في النظر تُجبرك على قول ما لا تريد. لم أقل له شيئًا عن الورقة، ولا عن اختفاء صباح، ولا حتى عن الأصوات التي أسمعها ليلًا. فقط جلست قربه، وسألته:

"إنت لسه بتفتكر الحلم؟"

هزّ رأسه ببطء، دون أن ينظر إليّ، وقال:

"الحلم ما بينتهي... هو البينتهي."

ثم صمت طويل، كأن الزمن نفسُه يراقبنا.

تذكرتُ ما قالته صباح في رسالتها الأخيرة:

"إبراهيم هو من رأى أول الطريق. لكنه لم يُكمل."

هل كانت تقصد والدي؟ أم هناك إبراهيم آخر في القصة؟

قلتُ له وأنا أراقب أوردة يده:

"لو مشيت درب صباح، بكون غلط؟"

أجابني بصوت منخفض:

"الدروب ما بتغلط، الناس البتختار ساي."

ثم فجأة، وكأنه اختار أن يقول ما ظلّ مكتومًا لعقود، أضاف:

"في مرة قبل سنين، لما كنت في الجبال... قابلت زول قال لي: (الصوت البيجيك ما صوت رياح. اسمعو كويس، لكن ما ترد بسرعة)... ومن يومها، أي زول بيرد بسرعة، بيضيع."

نظرتُ إليه طويلاً. الجبال؟ الأصوات؟ هل كان أبي يسمع ما أسمعه؟ هل خاض هذا الطريق قبلنا؟

***

في تلك الليلة، حلمتُ بصباح.

كانت واقفة تحت شجرة محترقة، تحمل نفس الورقة، لكنها هذه المرة مكتوبة بلغة أعرفها.

قالت:

"إنت سِمعت، بس ما وعيت. الورقة فيها الرجعة... بس في صوت واحد لازم تُجاوبو."

-

***

الرعد الذي بدأ ليلًا، لم يكن كغيره. لم يكن صوته في السماء، بل تحته. كأن الأرض نفسها ترتج، تهتز من الداخل، كأن هناك شيئًا يُفتح تحتنا، لا فوقنا.

استيقظتُ فجأة من حلمٍ نصفه ظلال ونصفه نار. ورأيت الضوء الأحمر يتسلل من تحت باب الغرفة القديمة التي لا يفتحها أحد في بيتنا.

الغرفة التي قال إبراهيم يومًا: "فيها كل ما لا يُقال."

اقتربتُ. الباب يُصدر أنينًا يشبه صوت بكاء مكتوم. مددت يدي ببطء، ودخلت.

كانت الغرفة مظلمة، لكن الورقة... الورقة التي كانت مع صباح، كانت الآن على الأرض، تتوهج كأنها تحترق بلا نار.

مددت يدي لأحملها، فسمعت الصوت.

صوت لم أسمعه من قبل، ولا أعرف كيف فهمته:

"كل خطوة منك تُقابلها خطوة من الظل... اختَر بحذر."

تراجعتُ، لكن الورقة تشبثت بكفي كوشم روحيّ. لا نار، لا ألم، فقط أثر لا يُمحى.

في اليوم التالي، ذهبت إلى عبق.

كانت الوحيدة التي تستطيع أن تترجم هذا الجنون. فتاة تُجيد قراءة الفراغ بين الحروف، وتفهم النُسخ القديمة من الكتب التي لا عنوان لها.

حين رأت الورقة، شهقت، لكنها أخفت فزعها سريعًا.

قالت بهدوء مصطنع:

"دي خريطة... لكن ما خريطة أرض. خريطة طريق داخلي. رحلة. كل من حملها لازم يواجه نفسه أول."

سألتها: "وصباح؟"

ردّت بعد صمت: "هي دخلت... بس لسه ما خرجت."

خرجتُ من عند عبق، أحمل الورقة، وأشعر أن الهواء من حولي أصبح أثقل.

الناس في الشارع ينظرون إليّ وكأنهم يعرفون. وكأن شيئًا في وجهي تغيّر.

والنداء لم يتوقف.

-

***

كان الليل مكتمل الظلمة، لا قمر، لا نجم، حتى أن الشوارع بدت وكأنها تحبس أنفاسها. لم يكن شيء طبيعيًا في تلك الليلة، ولا حتى سكون المدينة. كل شيء يترقب.

في طريقي للبيت، رأيت إبراهيم واقفًا أمام الباب. لم يكن ينتظرني. كان واقفًا كأنه يحرس شيئًا خلفه، كأن البيت تحوّل إلى باب سرّي بين العوالم.

نظر إليّ، نظرة طويلة، ثم قال:

"الورقة اختارتك. لكن الظل لا يفتح إلا لمن فقد شيئًا."

سألته: "شنو المفروض أفقد؟"

ردّ:

"أنت فقدت بالفعل... بس ما عرفت."

دخلت، والغرفة نفسها كانت تنتظرني. الورقة بدأت تتوهج من جديد، وسمعت الصوت الذي صار مألوفًا:

"ضع يدك على الأرض."

فعلت، دون تردد.

الأرض لم تكن أرضًا. تحتها، طبقة من نبض... كأن جسدًا حيًا يستقبلني. لحظة واحدة، ثم كل شيء انقلب.

سقطت.

لم أصرخ. لم أحاول الإمساك بشيء. فقط شعرت أنني أنزلق إلى داخلي.

كان المشهد الأول في "الداخل" يشبه الحلم:

سماء رمادية، شمس سوداء، وبيوت من دخان.

رأيت صباح تمشي أمامي. لم تلتفت، لكنها تمشي بخطى من يعرف النهاية.

ووراءها... ظل. لا شكل له، لكن ملامحه تشبهني.

***

اقترب مني الصوت مجددًا، هذه المرة من داخلي لا من الخارج:

"في هذا المكان، أنت كلك سؤال. لا توجد إجابات، فقط مرايا."

نظرت حولي. كل شيء يعكسني، لكن كل انعكاس يحمل جزءًا مختلفًا من وجهي: الغضب، الخوف، الشك، الأمل، وشيء لم أره من قبل... شيء يشبه *الذنب*.

كل مرآة تهمس:

"هل تجرؤ أن ترى؟"

وقفت أمام إحداها، مددت يدي، ولمستها.

فبدأ كل شيء ينهار.

-

حين لمستُ سطح المرآة، لم يتحطم كما كنت أظن، بل ابتلعني. لم يكن زجاجًا، بل ماء كثيف، أسود، بارد. شعرت وكأنني أعبر من جلد إلى جلد، من قشرة إلى جوهر، من "أنا" أعرفها إلى "أنا" لا اسم لها.

وجدت نفسي في ممر طويل، جدرانه من دخان ساكن، وسقفه سماوات مقلوبة. الأرض تحت قدمي لم تكن أرضًا، بل كلمات مطموسة، تمشي عليها فلا تقرأ، لكنها تُشعر.

في نهاية الممر، وقفت عبق.

كانت ترتدي ثوبًا أبيض، لكن ظلها أسود ومكسور. نظرت إلي دون أن تراني، وقالت:

"أي شيء فقدته ستجده هنا، لكن بثمن... الثمن أنت."

قلتُ:

"ما الشيء الذي فقدته؟"

أجابت بصوت لا ينتمي لها:

"صدقك."

ثم اختفت.

ظهر لي إبراهيم، ليس كما أعرفه، بل في صورة شيخٍ منهك، بعين واحدة ترى والموجة الأخرى مغطاة بضماد قديم. قال:

"كلنا هنا صدًى لما لم نقدر أن نقوله. هذا المكان لا يعطيك الحقيقة، بل يمنحك شجاعتك لتخسرها."

فهمت شيئًا غامضًا، ولم أفهم.

وفجأة، عادت صباح.

لكن هذه المرة كانت تمشي على الماء، وتبكي دمًا.

قالت بصوت يقطع:

"أسينسفوسكي، ظلك يكتبك الآن. لا تخف، لكن لا تثق في كل ما ستراه."

في اللحظة التالية، المرايا كلها انفجرت دفعة واحدة.

الانعكاسات هربت، الكلمات ارتفعت عن الأرض، وسماء الداخل بدأت تمطر وجوهًا... وجوهًا أعرفها.

لكن الوجه الأخير... كان وجهي، يبكي، يضحك، يصرخ، ويسأل:

"هل أنت أنا؟ أم أنا الذي خنتك؟"

ثم ساد صمت غريب.

ومن خلفي... صوت الباب يُفتح.

-

***

في اللحظة التي دوّى فيها الرعد داخلي، شعرت كأن كل شيء كان يتحرك في اتجاهٍ واحد، منذ البداية... نحو هذا المشهد، هذا اللقاء، هذا الإدراك.

وقفت أنا — Asensfusky — وسطهم: صباح تضيء ما بقي من ذاكرة المدينة، إبراهيم يحرس الصمت بحكمة لم أفهمها إلا متأخراً، وعبق تمزق حدود الرمزية لتصير مرآة المواجهة.

كنا ثلاثة، نحمل وجوهاً مختلفة، لكننا كنا صوتاً واحداً — ذلك الصوت الذي ظل مكبوتاً في قاع الخراب، ينتظر أن يُنطق.

عبق رفعت دفترها الملطخ، وقرأته بصوتٍ ثابت:

"أُطلق سراح الوعي حين سقطت الأقنعة. فليُكتب الآن ما لم يُكتب..."

ظهر خلفها ضوء، لم يكن شمسًا، بل شيء أشبه بالذاكرة حين تشفى.
جبل مرة الذي رأيته في الحلم، كان حاضرًا خلفنا، بقمته المنهارة، ومقبرة الألف شهيد.
أسماؤهم كانت تخرج من الأرض، وتطير كطيورٍ من دخان.

سألت صباح:
"هل كنا أمواتًا؟"

قالت:
"بل كنا ضائعين... والآن فقط عرفنا الطريق."

أما إبراهيم، فاكتفى بأن أخرج من جيبه مفتاحًا صدئًا، سلّمه لي، وقال:
"الآن افتح الباب."

مددت يدي، ووضعت المفتاح في قفلٍ لم أره من قبل...
وحين فتحته، لم يكن خلفه ضوء ولا ظلام، بل صفحة بيضاء.

قال صوتٌ في داخلي:
"اكتب أنكم كنتم هنا."

ففعلت.

**

النهاية

لا أحد يعرف إن كنا عبرنا إلى العالم الآخر، أو عدنا إلى الواقع...

لكن المؤكد أننا — في لحظة صدقٍ نادرة — أصبحنا *نحن*، بلا أقنعة، بلا ضجيج.

-

وأن ما كُتب، قد يبقى يوماً ليشهد أن في أرضٍ تآكلها الحرب،

ثلاثة أرواح مشَوا نحو الضوء... وكتبوا شيئًا يُشبه الحياة.

عمر ابراهيم

اسنسفوسكي